المعجـزة

چيلان حمـزة



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٣

مكتبة الأسـرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة قصص من التراث)

المعجزة
چيلان حمزة

تصميم الغلاف
والإشراف الفنى:
للفنان : **محمود الهندى**
الإخراج الفنى والتنفيذ:
صبرى عبدالواحد
الإشراف الطباعى:
محمود عبدالمجيد
المشرف العام :
د.سميــرسرحــان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقــافة

وزارة الإعـلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

وزارة الشــباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

المعجزة

على سبيل التقديم:

لا سبيل أمامنا للتقدم والرقى وملاحقة العصر إلاّ بالمزيد من المعرفة الإنسانية.. نور يهدينا إلى الطريق الصحيح، ولأن مكتبة الأسرة أصبحت أهم زهور حدائق المعرفة نتنسم عطرها ربيعًا للثقافة المصرية الأصيلة.. فإننا قطعنا على أنفسنا عهدًا ووعدًا ليس لنا إلا الوفاء به لتثمر شجرة المعرفة عطاءً للأسرة المصرية.

د. سمير سرحان

الاهـــــداء

الى وطنى

والرعده تهزنى عشـــقا

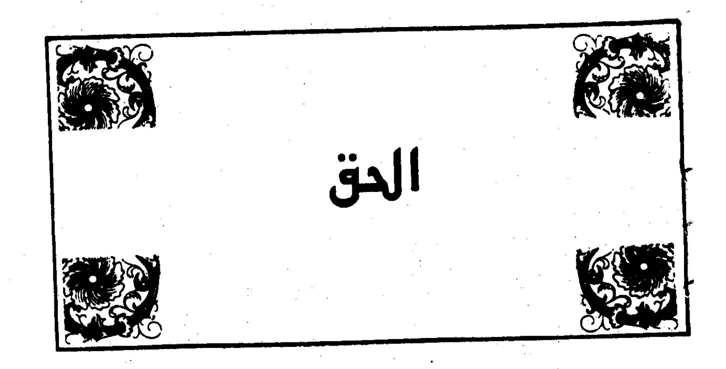
وجنـــونا بهـــا الى مصر الباقية

جيـــلان حمـــزه

شـــكر

اليه حيث فارقنا ٠٠٠
اشكره فقد كانت كتاباته معين علق بروحي ٠٠٠
فشـكرا للراحل العظيم
د ٠ عبـد الرزاق نوفل

جيـلان حمـزه



الحق

الوقت بداية الشتاء والسحابات الشديدة البياض تحجب الشمس لفترة ثم تروح عنها فى أسى ينذر بيوم بارد ٠٠ رطبة أطراف الخيـام فى ذلك الـوادى الذى يسكنه المسلمون تتلاعب بها النسمة الحادة فترفعهـا وتكشفها للرياح توقظ كل من فيها ٠٠ بعضهم يفكر أن ينكمش فى مكانه ويستجلب اغفاءة لها لذة مذاق الشتاء المقبل ٠٠ والبعض الآخر كانت له الصحوة كاملة ليبدأ يوما من فجره ٠٠ أبعد قليلا عن هذا الوادى كانت هناك مجموعة من بيوت مبنية بالحجـارة البيضاء حيث يعيش نفر من اليهود نساء ورجال وأبناء ٠٠ وكان « حبرهم » وكبيرهم له الكلمة الفصل فى كل أمورهم الحياتية ٠٠

هذا الشيخ كان يمشى أمام داره جيئة وذهابا بطريقة رتيبة كانه ينتظر شيئا ما ٠٠ ينتظر حدثا ما ٠٠ والريح الخفيفة الباردة تلعب بعباءته فتظهر قدميه الى خناق ساقه وهو يدق الرمال بقوة واصرار ٠٠ فى مشيته تأكيد بأنه ينوى ألا يكف عن الجيئة والذهاب الى آخر يوم فى حياته ٠٠ يشد عباءته يصلح بعضها حول كتفيه وفى نفس اللحظة يتحسس شاربه وذقنه فى حركات سريعة متتابعة بعدها يرفع رأسه الى أعلى يلمح الشمس خلف الحجب فقد قاربت ان تتوسط السماء وهذه هى اللحظة التى يتلهف عليها وينتظرها فقد كان على موعد مع قاضى المسلمين ٠

كل من فى البيوت الحجرية يعرف ٠٠ يتكلمون هامسين بأن «حبرهم» وشيخهم له خصومة كبيرة ومعروفة بينه وبين « على بن أبى طالب » ٠٠ وموعد نظر الخصومة هو اليوم حين تتوسط الشمس السماء ٠٠ أما كبار سكان البيوت الحجرية نفسها فكانوا يتندرون وينظرون الى الأمر كله بعين الشك والريبة ٠٠ لأنهم لا يصدقون الخصومة من أساسها ٠٠ كانوا غير مقتنعين بفكرة أن يتخاصم كبيرهم مع « على بن أبى طالب » لأن « حبرهم » معروف بأنه كيس ٠٠ واسع الحيلة ٠٠ ناعم اللفظ ٠٠ فقرروا أن هذه الخصومة عمل مفتعل ٠٠ وكانوا على يقين بأن «حبرهم» له مرمى آخر ولكن لم يفطن اليه أحد بعد ٠٠ أما سكان الوادى المسلمون فكانوا هم الآخرون

فى عجب من أصل الحكاية فالمعروف عن « على بن أبى طالب » أنه سمح ما اشتكى أحد من معاملته ٠

وعندما حضر سيدنا « على بن أبى طالب » مبكرا عن خصمه اليهودى قبل أن تتوسط الشمس السماء بهنيهات فاذا بالقاضى يحتجزه بالخارج الى أن يحضر « الحبر » اليهودى ، ويأمر بألا يدخل الا معه ٠٠ ثم قال مؤكدا : « يا على ما كنت لأدخلك قبل خصمك ٠٠ فتهدأ نفسك ويزول عنها القلق ويستقر أمرك أكثر مما يتاح لخصمك لو دخل على القضية والقاضى مباشرة » ٠

فقبل « على بن أبى طالب » وعاد منسحبا الى الوراء ولم ينطق بكلمة واحدة ٠٠ ثم أخذ قاضى المسلمين ينادى على بعض النساء فتقترب المرأة فى خطوات مترددة أو خطوات مضطربة الى أن تقف أمامه ليسمع منها ٠٠ ولما تكرر نداؤه على الشابات صاحت احدى الحاضرات غاضبة :

ــ أما ترى العجائز منا يا قاضى أولى بانهاء خصوماتهن قبل الشابات !؟

أطرق القاضى ثم قال :

ــ أقدم الشابات لأنى أعرف أن لهن صغارا فى حاجة الى الرضاع ويسوؤنى أن أرى أى امرأة ترضع

وليدها على الملأ ٠٠ أما أنتن فقد سمحت بجلوسكن فى خيمتى حيث الظل ٠

وجاء دور اليهودى و « على بن أبى طالب » فدخلا سويا الا أن « عليا » جلس من فوره أمام القاضى وكان هذا سلوكا عاديا فى ذلك الزمان ولكن بدا على القاضى الضيق وقال من فوره :

قف « أبا الحسن والحسين » بجوار خصمك وساوى كتفك معه لا تتقدم ولا تتأخر عنه و ٠٠

هنا تغير وجه سيدنا « على » وبدا ضيق الصدر ٠٠ بدا كمن جف حلقه فجأة تلفت حواليه كأنه يبغى شيئا ٠ وجهه أيضا علته حمرة حتى أذنيه ٠٠ فعلا تغير وجه سيدنا « على » لدرجة أن القاضى لاحظ هذا فقال له :

ــ أغضبت « يا على » ؟ لأنى أمرتك بالقيـــام ٠ والاسلام يأمر بالمساواة بين الخصوم فى اللفظ واللحظ والمجلس ؟

استدار سيدنا على بوجهه ناحية القاضى وقد عاد لونه الى ما كان عليه وبدا ظل ابتسامة على شفتيه وهو يقول :

ــ لا ٠٠ لا والله ٠ أنا فعلا غضبت وذلك لأنك ناديت خصمى باسمه وناديتنى «بأبى الحسن والحسين» وبذلك

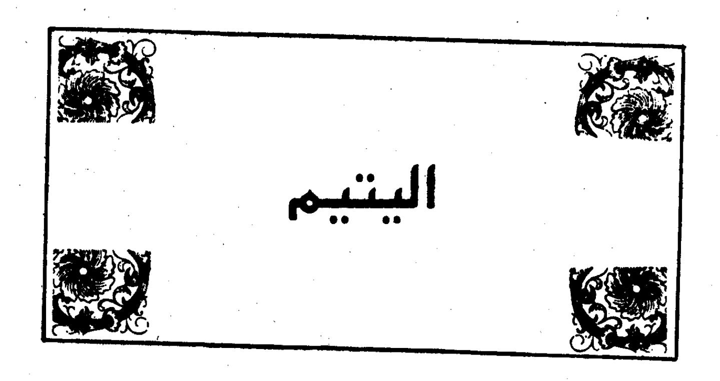
تكون قد قربتنى منك أكثر مما قربته اليك وفى هذه الحالة انك اذا حكمت لصالحى لاعتقـد اليهـودى أنك جرت على حقه وأعطيتنى مالا حق لى فيـه وان حـكمت لصالحه لأنك مؤمن أنه على حق واقرارا للعدل فسيقول رغـم ذلك أنك أعطيتـه حقـه الا أنك أعطيتنى ودك ومحبتك و ٠٠ و ٠٠

لم يدع اليهودى سيدنا « على » يسترسل فى حديثه الى القاضى وقاطعه ينهى هذا الموقف قائلا :

ـ الآن تنتهى خصومتى معك « يا على » ٠٠ وأشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ٠٠ وطالما أننى أصبحت مسلما فتعال نتفاهم معا ٠

• طوق كتفه بيده وسار به وهو يضمه اليه المرة تلو المرة وهو يردد « احكم أنت فلقد رضيت حكمك ٠٠ انى راض ٠٠ اننى مرضى » وبينما نزلت دمعـة من عينيه حاول بطرف عباءته أن يمسحها كان سيدنا « عـلى » يتلفت بوجهه الناحية الأخرى ليعطيـه فسـحة ليوقف دموعه المنهمرة ثم التفت اليه يحتضنه وهو يقول :

ـ خذ ما شئت ٠٠ واحكم بما أردت فانك أصبحت أخى فى الاسلام ما عندى حق لك ٠٠ وما عندك هو لى ٠



اليتيم

الدمعة معلقة فى عينه ·· كل ما استطاع أن يفعله فى اصرار هو أن يبتلع المرة تلو المرة غصة فى حلقه ·· يأبى أن يسدل جفنه لو لبرهة خشية أن تنسال دمعته ·

كان يسرع بقدميه الصغيرتين يدك بهما الأرض دكا كأنه شاب مكتمل بل ويعرف طريقه الذى يبغيه ! هكذا تقول ـ خطواته الأكيدة وظله بجواره أطول من حقيقته فكان يطيل النظـر اليه بين الفينة والفينـة ثم يردد لنفسه فى مشيته التى على غير هدى : « هل يجوز أن أكون بكل هذا الطول وأبكى » خدعه ظله فاعتقـد الصغير أنه كبير على الدموع ! رغم قلبه المثقـل وذلك الهم الأكيد الذى يضغط حناياه فكان يرفع يده الصغيرة

الى قلبه يلتقط الخفقان وكأنه يمامة ترتعش وتنتفض بين يدى من ينوى بها عبثا ·· وهو يلقى بنظراته هنا وهناك بعيدا حتى السماء وقد لامست الأرض عنـــد الأفق · والشمس تنساب فى سكون غـريب من خلفـه فيبدو ظله أطول من حقيقته وأكثر نحافة ·· الدنيا من حوله صامتة كأنها تشاركه ما تنوء به نفسه ·· وهـو مازال سائرا ·· سائرا وسط انفتاح الكون من حوله ·· وبسطة تلك الصحراء من تحته اذ تبدى له عـلى البعد انسان أو هى امرأة تجلس القرفصاء ! حـدث نفسه : « ترانى أشكو لها ما فى نفسى ؟ أتوارى بجوارها ؟ ربما تملك حلا لى ؟ سأحدثهـا ·· سأحدثهـا ·· سـأ · · والأحلام ·· الأحلام تتوالى فى رأسه الصغير وهـو يمد الخطى ·· فى اتجاه المرأة التى بدت له · ورغم خطواته الواسعة واللهفى اليها كان داخله ــ الصغير ينطبق عـلى ذاته متقوقعا يحمل ما هو أثقل من كيانه كله !! انهـا رغبـة كبيرة تتملكه فى ألا يراه أحـد اليـوم ·· ثم يعود يحدث نفسه : « وماذا اذا سألت المرأة عملا اعتمد عليه و ·· و ·· و ··

الأحلام ·· الأحـلام تكبر وهو يمـد الخطى ·· يسابق ظله ليصل اليها ·· كانت فى جلستها القرفصاء بادية الحنان · · فيها معنى الضم الدافىء ·· وغطاء رأسها ينسدل على ظهرها يحميها ويحمى ما تحمله ·

بقـدميه الصغيرتين ·· قدمان لطفـل أقرب الى

الاستدارة عن التفصيل ٠٠ وهو ٠٠ يقترب منها تتقاذفه مشاعر شتى فيفتح فمه يريد أن يحوى هواء الدنيا داخله ٠٠ يرمى أفقه البعيد بنظرة عجلى فيوقن باحتضان السماء للأرض وفي هذه اللحظة نفسها كانت الأحلام ٠٠ الأحلام يعينها تتكسر بلا هوادة ! ورأى ظله قزما !! أفاق على حقيقة الشكل الذى داعبه من بعيد بالآمال وعنده تكسرت الأحلام ٠٠ تكسر ما كان بينه وبينها قبل أن يصل اليها لأنه ويا ويله وجدها صخرة صماء خلع عليها خياله كل ما كان !!

بدا وحيدا كنبتة صبار والصحراء من حوله شاسعة متفردا فى نوع من الآلام أبعد بعيدا من عمره ٠٠ وانسالت دموعه كأنها حبات العنب تتدحرج فى اثر بعضها من قسوة واقعه المفاجىء فخر جالسا محتضنا ٠٠ ركبتيه الى صدره حتى غفا وصوت أترابه الذين لهم نفس عمره يدق رأسه دقا بأن اليوم عيد أوشك أن ينقضى وكلهم ٠٠ كلهم لهم من الملابس الجديدة حتى العباءة ٠٠ حتى غطاء الرأس والنعال أزرارها لامعة لأنهم يعيشون فى كنف الأب والأم ويزيد على هذا أن بعضهم له كنف الجدة أو الجد الحانى ٠٠

أما هو فمن له ؟؟ كان حتى وهو فى نومه والارادة لا يملكها كانت دموعه تسح من تحت جفنيه المطبقين ٠

ولما كان كل شىء فى دنيانا بقدر فقد تصادف عودة الرسول الكريم « ﷺ » بعد صلاة العصر بصحبة

أبى بكر يتحدثان مليا ثم يتوقفـان عـلى مهـل ويجيل الرسول « ﷺ » البصر هنا وهنـاك دون قصد معين يبغيه فكان يتمهل معه أبو بكر ويحذو حذوه ·· شيء ما لا يعرف الرسول « ﷺ » كنهه فيظل يجيل البصر هنا وهناك وأخيرا استأنف سيره ومعه أبو بكر متجهـا تماما الى الطفل واختار الرسـول « ﷺ » ان يظـل جالسا بجواره وقد أمسك عن التجاذب بأطراف الحديث·

ظل هكذا الى أن استيقظ الصغير من نومه وقبـل أن يعـود اليه الـوعى الـكامل بكل ما يجرى به وبمن يجلس بجواره اذا بالرسول « ﷺ » يقترب منه يحتضن رأسه الى صدره ويغنيها بعباءته ·· يمسح على ظهره ·

كان وجه الطفل مازال مبللا من أثر دموعه السيالة فكان الرسـول « ﷺ » يمسـح وجهه العزيز بطرف عباءته الطاهرة وهو يردد له : « يا رجل ·· هل تيأس من رحمة الله » فضحك الصبى الصـغير وبدت ظـلال النشوة على أساريره وهو يسمع من يناديه «بيا رجل»·

اندفع الصبى يروى للرسـول الهـادى « ﷺ » قائلا : أف للحياة ·· لقد مات أبى فى غزوة مع الرسول وتزوجت أمى برجل آخر لم يقبلنى فى بيته وليس لى جد أو حتى جدة ·· وكما ترانى الآن بلا ثياب جديدة فى العيد ولا طعام آكله منذ الأمس وأن عين رأسى ترى أترابى وهم يمرحون و ·· و ·· » ·

لم يدعه الرسول الحانى « ﷺ » يتم حديثه اذ ضمه بقوة الى صـدره كأنه يريد بذلك أن يقتلع ألام الصغير ويحملها هو عنه ثم قال له :

ــ أما ترضى أن أكون لك أبا وفاطمـة أختـا ٠٠ وعائشـة أما ٠٠ وعـلى عمـا ٠٠ والحسن والحسـين أخوين ٠

أجفل الصبى برهة هو يعى فجأة مع من يتحـدث وظل يردد :

ــ كيف لا أرضى يا رسول الله ٠٠ كيف لا أرضى يا رسول الله ٠

وتعلقت أصابعه بيد الرسول « ﷺ » فى طريق عودتهم والفرحة تصطخب ألوانا شتى فى صدر الطفل فيترك يد الرسول اليمنى ليدور ويمسك بيده اليسرى والرسول « ﷺ » يستجيب له بقبـول كل ما يفعـل وقرب داره كأن الرسول الكريم « ﷺ » يمعن فى ادخال السعادة الى قلبه بأن حمله الخطوات الباقية ودخل به عتبة الدار ٠

وخرج الصبى ينادى رفاقه الذين تحلقوا حـوله والقمر بدر كامل يشـارك طفلا لم يعـد منسـيا حلم

طفولته ٠٠ ظلوا يلعبون ويجـرون الى أن صـلوا الى الصخرة التى عندها عرك الصبى مشـاعر خيبة الأمل وغلبته دموعه وهو يحى مذلة الأحساس باليتم ٠٠ عندها ولم يمض من الزمن الا بضع نهار كان هو نفسه يضحك ويقهقه مرارا مما أثار دهشة رفاقه فساله أحدهم :

ـ كنت في الصباح حزينا لا تبغى منا أحدا والآن سعادتك واضحة ٠٠ و ٠٠

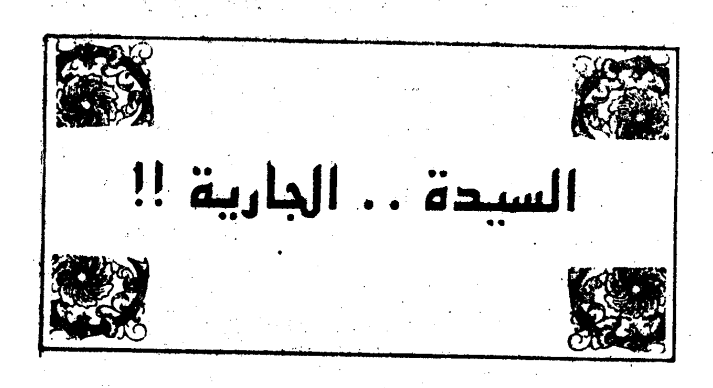
فرد من فوره :

ـ كنت جائعـا فشبعت وعاريا فاكتسـيت ويتيما فصار رسول الله أبى وعائشة أمى ٠

واستمر الصبى فى رعاية الرسول « ﷺ » حتى أمر الله فخرج يمكى وهو يقول :

« الآن صرت يتيما ٠٠ الآن صرت غريبا » ٠٠

ولكن أبا بكر ضمه الى كنفه متبعا الرسول الى أن صار رجلا وقد ظل يردد عبارته « اللهم صلى على أبى محمد ٠٠ اللهم صلى على أبى محمد » ٠



السيدة .. الجارية !!

المساء يقترب لحظة بلحظة نديا .. والنسمة معه حانية تلف الأجساد كأنها تربت عليها وتهبها العافية .. الجميع يوقن على جلسته بأن الليلة من أحلى ليالى ذلك الصيف الذى على عتبة البدء .. وأكثر من هذا .. انه لن يكون صيفا قائظا .. فرغوا جميعا من صلاة المغرب ومازال الوقت نورا .. والحديث موصولا .. نسوا الوقت ولم ينتبهوا الا على القمر يتوسط السماء .. أشعته ساهرة .. أشعته استعارت اللون الأزرق من السماء وأضاف القمر اليها اللون الفضى فجعلت للمكان روعة ولفتة بنوع من الغموض الذى يأسر القلوب .. هناك نوع من السكينة حطت على المكان من هذا المناخ

الهادىء .. الا أن « طارق بن يزيد » كان واضح القلق يتقلب على جلسته يمينا وشمالا أما عينه فكانت مصوبة هناك .. على نافذة منزل بعيد يبرق بداخله موقد مشتعل .. ظل مصوبا نظرته اليه دون أن يطرف له جفن . و.اذا ما دار حوله أى طفل من أبناء الحاضرين أو لامسه وهو يمرق فى لعبه أجفل بطريقة ملحوظة !! رغم أنه كان يحاول السيطرة على مشاعره .. الى أن ابتعد الأطفال نهائيا عن مجلس الكبار .. ونفس نوع هذا القلق كان ينطق به وجهه حين تقترب منه احداهن يتطلع اليها محدقا ويهم أن يسأل عن شىء الا أنه يحجم فى آخر لحظة .. وتظل النساء يدرن بالشراب والماء وطارق قد نسى عينه معلقة على تلك النافذة الملتمعة فى البعيد !! ؟ الجمع المتحلق أمام الخيام فى تلك الأمسية يغض الطرف عنه عامدا فان حكايته صارت على كل لسان .. لقد أولع « بريم » الجارية .. وهو شاب وتاجر مرموق فى شبه الجزيرة يجوب بلاد الشام فى رحلاته ويعود بألوان من الحاجيات لتجارته .. فما أيسر أن ينال جارية !!

★★★

وبعد ذلك المساء بأيام نوى أصحابها ارسالها فى حاجة لهم من قرية أخرى قريبة فسارعت زميلة لها تخبر « طارق » بعزم « ريم » على الرحيل لاحضار ما يحتاجونه

.. فلبس أفخر ثيابه وجهز مهرة لها مقعد على ظهرها من الفضة الخالصة وتبع سيرها وبعد أن أوغلت فى الطريق مبتعدة وبدت الديار ضئيلة تكاد لا ترى طلع عليها من جهة الشمال فاوقفت دابتها وترجلت لترحب به .. قلبها فى خفقاته يهز خمارها الأخضر الذى تدلى على صدرها وتخطفت أنفاسها وهى تحاول أن تعثر على كلمات ترحب به .. وطال وقوفهما والصمت بينهما لا غيره .. اذ به يقترب منها ليهمس فى أذنها .. وحين كرر همسه انتفضت مبتعدة عنه الى الوراء وكادت أن تنعش واقعة الا أنه احتواها بذراعه القوية الا أن استوت الأرض تحت قدميها وهى تقول « لا .. لا يمكن أن أشد حبالك ولكنى أخاف الله » سمع مدويا بين السماء والأرض عبارتها الأخيرة « ولكنى أخاف الله .. ولكنى أخاف الله » وكأن الجبال من حوله انطبقت على قلبه .. فجف حلقه .. والخفقات تذير فى قلبه وهو يردد دون أن يدرى « كأنك تخافين الله وأنا لا » .

لم تمهله « ريم » اذ امتطت دابتها منطلقة الى غايتها لا تلتفت خلفها .. أما « طارق » فانزرع مكانه واقفا وهو يراها تمعن في البعد حتى لم يعد يرى لها ظلا ولا يسمع صوت دابتها .

وبقى مكانه لا يدرى كم من الوقت .. ولم يكن قد جهز معه شيئا يعينه على هذه السفرة القصيرة ..

وبدت الصحراء له لا نهائية وغادرة حين أصابه العطش واشتد به ·· ذاق طعم الهلاك فكان يقتلع الاشواك من أرض الطريق يحاول أن يمتص ما بجذورها وانشغل باله بفكرة واحدة ·· فظل يردد لنفسه بألا يجب عليه أن ينخدع بالسراب الذى يراه فلا ماء يمكن أن يكون فى هذه البقعة ·· ثم يعود ليكرر لنفسه « لا يجب أن أخدع بالسراب وتسوقنى قدماى الى التهلكة ·· » ·

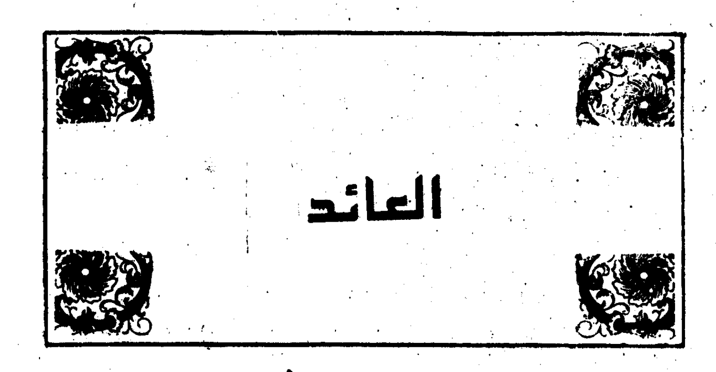
وبدون مقدمات سمع صوتا فالتفت اليه بقوة ·· وكان أوضح ما وعاه لحظتهـا أنه يمـد له يده بالماء فالتقف « القربة » منـه وظل يشرب حتى ارتوى وأول ما نطق به الى ذلك الشيخ الذى سقاه أن قال له :

« انها تخاف الله » وبدا صـوته تردده الجبـال بنفس العبارة التى قالها فكان يلتفت حواليه مترعجـا الا أن الشيخ هدأ من روعه وهو يربت على كتفه بقـوة ويقول : « كلنا نخاف الله يابنى ·· كلنا نخافه » ·

وسار بجواره ومهرته البيضاء خلفهما فقد ذهب الروع عنه ولم يعد فى حاجة الى أن يركبها بعـد أن ارتوى ·· هـل تلك النسـمة الصيفية الحانية عادت تمسح الأجساد فلم يشعرا بالتعب ؟ ولما وجـد نفسـه معافى عرض على الرجل أن يركب هـو الدابة ولـكن

الشيخ تبسم وهو يقول : « لا حاجة بنا اليها » ونظر الى السماء فنظر طارق هو الآخر الى السماء فوجد سحابة تظللهما فحدث نفسه أنها ولابد لذلك الرجل الذى سقاه .. ووصلا الى داره فتركه الرجل يكمل مسيرته .. ووصل الى مشارف قرية قومه الا أن السحابة بقيت معه تظلله .. الى أن دخل داره ووجد أمه تجهز له الطعام .. فجلس ينتظر وقد سالت دمعة واحدة على خده فمالت أمه عليه تمسحها بحنان فأمسك بكفها وأخذ يروى لها عن حبه للجارية « ريم » التى تخاف الله .. وروى لها ما واجهه فى الطريق فسحبت الأم كفها من يد « طارق » وجلست أمامه وبعد تفكير كانت تقول له :

عجبا لما صادفك فى الطريق اليوم يابنى .. ولكن اعلم أن التائب عند الله تعالى له منزلة عظيمة وكما قال رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم « التائب من الذنب كمن لا ذنب له .. صدقت ياسيدى يارسول الله »



العائد

خفيفا رشيقا كان يقتلع قدميه الرفيعتين من عمق الرمال الصفراء حول مكة ، كطائر أطلق سراحه لتوه كان يعبر المساحات بخطى واسعة ·· اشتهر « رعد بن حنين » بخفة الخطو ·· له ساقان رفيعتان كحصان جموح يقفز بهما فى سرعة ·· يرى يقطع المسافة بين تلين وقبل أن تدير وجهك يكون على قمة التل الآخر ··

ظل « رعد » يسير بخفته المعروفة وبين الفينة والفينة يرفع وجهه الى السماء فيستلقى شعره الغزير أبعد من كتفيه ·· وصوت يقتحم لا نهائية الحياة وهو يردد الله أكبر ·· الله أكبر ··

الصوت يقتحم دنياهم وحياتهم •• وعلى المقتحم مهما كانت رسالته أن يتوقع من يتصدى له اكثر مما يمده بالتأييد والايمان الكبير •• لاهيا « رعد » عمن يناوشني في أذنيه •• سارحا بعيدا عما يمس نبض عقله هذا المس الأخاذ •• والريح مازالت خفيفة تزداد على حذر فتحرك الرمال وترفعها بارتفاع لا يتعدى خلخال قدمه الشديدة الاستدارة والتى يمكن غلق اصبعين من اليد فى شكل دائرة حولها •• وأن حفيف زحف الرمال السافيه على قدميه وطرف عباءته ولحظة غروب الشمس النازفة وصوت طائر مرق من جانبه ولامس شعر رأسه المسترسل فرماه « رعد » بنظرة حادة من عينيه الواسعتين ولما لم يلحق به فبحث عن ظله على الرمال وأدرك من فوره أنه صار على ارتفاع بعيد ثم عاد يعى تدريجيا انفتاح الأفق أمامه •• سماؤه بحمرتها تعد بأحلى نجوم تتزين بها •• يلملم طرف عباءته ويده النحيلة تحتضن « صرة » لا يسمح لأصابعه أن تفارقها ••

كانت الصلاة قد انتهت وصوت الرسول الكريم « ﷺ » يحكى للدنيا سر هذه الحياة الى أن فهم من كلام الرسول « ﷺ » بأن من ترك شيئا فى الحرام ناله فى

الحلال » والرسول « ﷺ » مازال يكمل حديثه اذ بأصابع « رعد » تتقلص منسحبة من على « الصرة » لتعود مرة أخرى تتمسك بها بشدة أكبر .

★★★

وكان الصباح مشرقا غمر الدنيا بلون أبيض فيه معنى للمدى اللا نهائى .. وها هو الليل يهبط حثيثا اذا وجد « رعد » نفسه يستبدل نعله بأخر خفيف عبارة عن رقعة من الجلد يذمها حول نهاية ساقه ويربط عليها برباط من قماش ، كان يفعل هذا قبل أن يقفز متسللا الى البيت الذى ينوى سرقته وقد تمكنت من أعماق نفسه الى أبعد نقطة فيها عادة السرقة .. والليلة يا ويل من قصدها .. امرأة مات عنها زوجها . فهى وحيدة وسرقتها يسيرة ..

وهناك خف الى داخل البيت وأول ما رآه طعام معد دله عليه ذلك الدفء الممزوج بعبق الدهن مخلوطا بدقيق آت لتوه من رحى قريبة .. فهم أن يمد يده ليتناوله .. كنمر شرس ظل مترددا فمن أين يبدأ الالتهام ؟ ولما انتهى الى قراره والأصابع بينها وبين الطعام مقدار خيط رفيع طرق أذنه صوت الرسول الهادى « ﷺ وكأنه لم يغادر المسجد !! الصوت يقول : « من ترك شيئا فى الحرام ناله فى الحلال » الأصابع بذراعها

المدودة تصلبت كغصن من شجرة جف وبقى أن يسقط وينتهى الأمر ٠٠ أصر « رعـد » بقـوة ٠٠ لوى عنق نفسه ليمد يده فتندي جبينه والتمع من أثـر حبـات العرق التى اندفعت على جبهته ٠٠

وفى اصرار كبير نزع قطعة اللحم بقـوة فتعرى العظم ورائحة نفاذة للنعمـة ملأت صـدره ٠٠ آكـل لا محالة ٠٠ اللحم قريب من شفتيه والعين شاخصة اليه، يحلم بمذاق يعشقه الا أن الصوت كان يقتحم اللحظة بكل قوة ليسمع وكأنه الرسول « ﷺ » ما برح المسـجد الحرام : « من ترك شيئا فى الحرام ناله فى الحلال » فترك اللقمة تسقط بعد أن غمسها فى الوعاء ٠٠

كان لوقوعها صوت خيل اليه أنه دوى عال ٠٠ وأنه طرقات ستنبه أهـل الدار فدار بعينـه دورة وقبل أن يتممها توقف عندما التمع هناك على بعـد أقدام شىء يبرق ٠٠ حلى المرأة وجواهرها تبرق لقيمتها ٠٠ انهـا أيسر ما تكون للالتقاط وينتهى الأمر ٠٠ انهـا قيمة وربما تكون نادرة ولابد أن زوجها قد اشتراها لها من احدى رحلاته العديدة الى بلاد الشام الأثيرة ٠٠

الصوت يبرق أشـد بريقا من الجـواهر فى ذهن « رعد » الصوت صار أصواتا تحوطه من كل جانب «من ترك شيئا فى الحرام ناله فى الحلال » رفع يده يتحسس بها صوان أذنه كأنه يحاول أن يخرج هذا المعنى منها !!

ولـكن ما يطلبـه كان المحـال ·· فبدا يائسـا متعثر الخطوات في تردد أكيد ·· هل يدلف يمين القاعة التي يقف وسطها ؟ أم يسارها ؟ وقادته خطواته الى اتجـاه لم يعنيه قصدا الا أنه لمح من خـلاله المراة وحيـدة في فراشها كنجمة انشق عنها الليل فكان لها حضور مكتمل حتى وهي نائمة !! فوقف مكانه لفترة لا يدرى زمنها وانتبه الى أن عينيه قد صـوبتا الى قدميـه يرفض ·· يرفض بكامل ارادته أن يرفعهما في هـذا الجمـال ليسرقه · ولحظة البصيرة امتدت داخله طويلة حوت كل جزيئات نفسه · وحسه ··

وخارج دارها كان يجرى ·· ويجـرى يقـرر مع نفسه بأن طريقه طويل وليله تبرأ منـه القمـر ··· ومازال يجرى وعند أستار الكعبة أدركه الفجر وحطت عليه المشاعر متباينة تتناوب وتتكشف له بصدق أكيد·

اليقين يكبر في قلبه هاديا والحقيقة يعيشها ··· يلمسها مع مطلع الفجر الأبيض الجـديد ·· لحظـاته يدركها كأنه يدركها لأول مرة ··

ولما بدت زرقة السماء تطوى برفق بياض الفجـر كان « رعد » يعيش لحظات بعينهـا مغموسة بمـذاق التوبة الجليلة · وارتفعت الشمس كاشفة حارقة وهو على جلسته منزو تحت ظل البيت العتيق ·· زاره النوم

هابطا مترفقا بما يعتمل داخل سريرته فنفا وهو على جلسته ... أيصدق ؟ .. أيصدق ؟ الأرض بكعبتها تميد به ! المفاجأة .. المفاجأة .. لقد عرفها من وجهها فيها ظل أكيد لعز قديم .

كانت تمشى مارة به وهناك جلست الى الرسول الهادى « ﷺ » والذى بدوره لم يفطن الى وجوده ساعتها .. وقصت على الرسول « ﷺ » واقعة لص داخل منزلها وخرج دون أن يصيبهافى شىء وبأنها شد ما تخشى أن اللص يكون قد تعرف على مداخل دارها وينوى لها شرا ..

كانت ترجو الرسول الهادى « ﷺ » أن يأمر لها بمن يخفر البيت لأنها وحيدة مات عنها رجلها ..

لم يحاول « رعد » أن يتسمع ما يدور منها ولو حاول لأفلح رغم تأكده بأن لحديثهما جانبا يمسه .. جلس على مكانته متكئا بظهره على حائط الكعبة متقبلا كل ما سيأمر به الرسول « ﷺ » محدثا نفسه بأن طريق التوبة شاق وربما طال .. وطال .. وأخرجه الرسول الكريم « ﷺ » من مجادلاته مع نفسه ومحاوراته الكثيرة بأن أشار له مستدعيا اياه .. فطار اليه طيرانا ملبيا لكل ما سيأمر به عقابا أم قصاصا .. وعنده كانت له اللحظة التى اشتهى أن يقف عندها زمانه ..

كان الرسول « ﷺ » الذى يوحى اليه وحيا يمسح على ظهره وهو يستفسر منه عن عمله ومع من يعيش وعلم بوحدته •• وأحس بحيرته ومازالت السيدة الأرملة ترهف السمع لكل ما يجرى أمامها •• وبعد هنيهة سألهما أن يتزوجا من بعضهما •• وقتها خفق قلب « رعد » • ان ما يحدث كان أكبر من توقعه لتقدير رحمة الله التى تدركه الآن •• ولما لم ترد المرأة حياء عمق الاحساس فى قلب وعقل « رعد » بلانهائية رحمة الله التى وسعته •

وبينما المرأة قد توارت منسحبة هنا أو هناك لتأخذ زينتها وبينما الرسول الهادى « ﷺ » قد أحاطه شابان يستفسران عن أمر من أمور دنياهم اذا « برعد » يضع رأسه فجأة على ركبتى الرسول « ﷺ » وقد انخرط فى بكاء طويل وكان من خلاله يقص على الرسول « ﷺ » بكلمات متقطعة حكايته كاملة والنبى المختار يمسح على ظهره بحنان كبير حسبه من فيض الحنان انه بدوره يتألم له فكف من فوره عن بكائه ••

ومشت المرأة خارجة عن مجلس النبى المختار ومعها الرجل زوجين الى بيتها •• وفى الطريق قرب وقت العصر كانا يسابقان ظلهما • لهفة على وصول الدار •• الرمال من تحت قدميهما دافئة وهواء ما قبل الغروب واعد بنسيم حان كأن الدنيا تقدم « لرعد »

معنى الطهر مطبوعا على كل ما حوله فلم يكن فى وسعه الا أن يقابلها باحساس رقراق بالرضى والسكينة .. وهناك أكل الرجل من كل ما تاقت اليه نفسه .. وتأجر فى أموالها كما أراد .. وهكذا مضى فى حياته الجديدة مع مطلع شمس كل صباح يردد لنفسه « من ترك شيئا فى الحرام ناله فى الحلال » صدقت يا سيدى يا رسول الله .



ضمته اليهـا بخفة شـديدة ترضعه وقد وضعت قطعة قماش مبللة على صدرها فقد كان اليوم شـديد السخونة وزوجها بجوارها أمامه قدح ماء يشرب منـه ببطء وصبر الى أن أغمض الرضيع جفنه ومال برأسه فانفلت الثدى من فمه فاحتضنته برفق وقامت به الى فراشه ٠٠ وسمعت زوجها يقول لها : « الآن يا ميساء نستطيع أن نتناول شيئا ٠٠ فالشمس على وشك الغروب ويمكننا أن نأكل دون خوف من الحرارة » ٠٠

فانتعشت لكلماته لأنهـا تشعر دوما بالجوع بعد أن ترضع الصغير والتفتت تعد الطعام وما أن جلسا وبدأت

تقطع « فطيرة » لتغمسها في العسل حتى توالى الدق على الباب بقوة فلم تكمل ما بدأته وقام زوجها ليرى السائل وقد عاد اليها في خطوات لهفى وهو يكلمها همسا بأن تقدم للسائل « الفطيرة » فلابد أنه أحوج اليها في يوم كهذا ٠٠ « فالأغلب أن لا بيت له ٠٠ ولابد أنه عانى كثيرا في يوم حارق السخونة كهذا ٠٠ و ٠٠ و ٠٠ »

وعلى عجل كانت تسارع بسكب العسل الأسود فوق وجه « الفطيرة » ٠٠ خطواتها واسـعة الى الباب وعـلى عتبة تسمرت للحظة وجحظت عينها شاخصة الى الرجل الذى يقف أمامها ٠٠

كان متهالكا وعنـدما تلاقت نظراتهما في أقصر لقاء ! لم تقو أن تقول له شيئا أو أن تأتى بأبسط حركة لتقدم له ما بيديها بل وقع ما بيديها على الأرض !!

ومع ذلك لم تلتفت اليه ! ٠٠ لم يطرف لها جفن! ٠ فقد كانت شاخصة اليـه وقد انكفـأ ملهـوفا يلتقط « الفطـيرة » بكل الرمال التى علقت بها ثم اسـتدار مبتعدا ٠٠ مبتعدا ٠٠ وما أن أغلقت البـاب راجعـة الا ودموعهـا سـيالة تبلل وجهها وكانت محـاولاتها مستميتة في أن تداريها الا أن « شعيب » زوجها اقترب بخطواته منها واحتضن وجهها بين راحتيه وهو يسألها

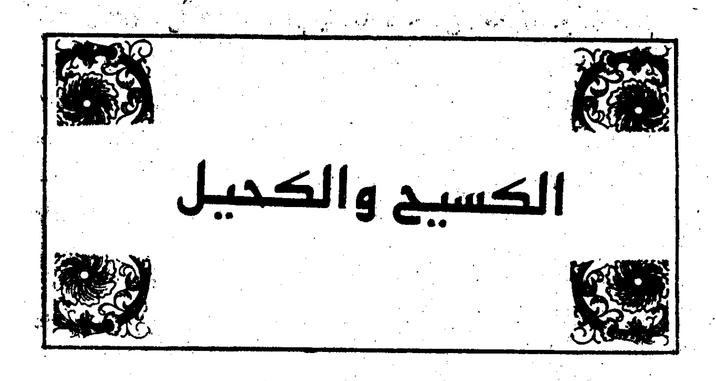
برفق عن سبب بكائها فانسحبت تجفف وجهها وهى تشيح بعيدة عنه وتغمغم لا شيء ٠٠ لا شيء فعاد يقترب منها اكثر وهو يربت على ظهرها وشعرها قائلا : «كيف لعيونك أن تبكى كل هذه الدموع وأنا مازلت حيا !! بالله عليك لابد أن أعرف السبب » فأطرقت للحظة ثم رفعت وجهها وأدارت عيونها فى الدار ٠٠ كأنها لا تعرف من أين تبدأ ومازالت آثار الدموع المعلقة بأهدابها واضحة ٠٠ الا أن زوجها عاد ليربت على كتفها وهو يقول بكل ما أوتى من عطف : « كيف لهذا القلب أن يتحمل وحده هذا العذاب ٠٠ فى كلامك الى تسرية عنك فقولى لى » كانت تبدو فى حزنها وهى جالسة على طرف أريكة فى البيت شديدة الرهافة ٠٠ وضاءة الطلعة رغم الكدر تعبث فى غطاء رأسها المتدلى تلتقط طرفه من اليمين تارة ومن الشمال تارة أخرى لتجفف دموعها فاقترب منها زوجها مداعبا : « يا الهى هل نزل القمر من عليائه وجلس على أريكتنا الليلة » فعبر بوجهها ظل ابتسامة وهى تقول بأسى : « ان الذى أعطيته الخبز كان زوجى قبلك وقد تبدل حاله ٠٠ يا الهى لقد تبدل حاله !! لم أكن أتصور أن تمر الأيام به لينتهى الى أن يتسول ما يقيم به أود نفسه » وسقط الصمت بينهما الا من بعض أنات تخرج من صدرها لها طعم الحريق ٠٠ وظلت تحكى له كيف كان هذا الزواج فى بداية حياتهما غنيا يملك من الابل بالعشرات أما

الماعز فلا يمكن حصرها فهى هنـا وهنـاك ترعى ٠٠ الصمت داهمهما فجأة فقد توقف « شعيب » عن أى كلام بل لم يرفع عينيه اليها فتوقفت بدورها من الاسترسال وبعد برهة اقترب منها زوجها أخذ كفها بين راحتيـه وأجلسها قريبة منه ولبرهة أخـرى تفرس فى وجههـا محدقا فى عينيها : « يا ميساء ٠٠ ألا تذكرين يوما فى الشتاء الماضى طرقت فيه بابكم أطلب شيئا أسـد به جوعى بعد أن ضاع منى الطريق والتبست على الدروب و ٠٠ و ٠٠ » ٠

فقالت : « لا أذكر أنى رأيتك وأنا زوجة له » !

فقال بسرعة : « بل لقـد طـرقت بابكم فى تلك الليلة وكنتما تستعدان للعشـاء وقد طلبت المسـاعدة فما كان من زوجك هذا الا أن نهرنى وطردنى بقسـوة بل وأخذ يركلنى برجليه! فرجعت بظهرى خجلا لا أقوى على النظر ناحيته وسرت هائما على وجهى والى اليـوم لا أدرى كيف ومتى نمت حتى صباح اليوم التالى ٠٠

فقالت له جزعة : « ويحك « يا شعيب » لقد كان هذا الفعل يتكرر منه كثيرا وعلى الأقل فى اليوم مرة الى أن زالت نعمته ٠٠ لا ٠٠ لا لم أكن راضية بجحوده ٠٠ ولا عن قبض يده الشديد ٠٠ كان هـذا سبب فراقنا ولكنى لم أتصـور أو يـدور بخلدى يوما أنه ٠٠ أنه سيتسول على الأبواب وممن ؟ من بيتنا نحن » !!



الكسيح والكحيل

بركلة واحدة من قدمه كان « المنذر سباق الريح » يندفع داخلا دارا لا يعرفها وفى أثره وقع باب الدار نفسه فأحدث دويا أرعبه وزاد من توتره لأنه دخل ليختبيء أما وقد وقع الباب فالملجأ أصبح مكشوفا ! فاندفع مرة أخرى بقوة يحمله ليسد به الفتحة .... كانت الشمس قد غابت ولكن بقايا ضوء أبيض ليوم صيفى حار جعل الرؤية واضحة فأدار عينيه فى الدار وأجفل لبرهة اذ وجد فى أحد الأركان رجلا يصلى وظهر له أنه فى صلاته لا يربطه بالدنيا غير ما يرى من جسده .. ومع ذلك شد سيفه من جانبه استعدادا لأى مفاجأة الا أن العابد لم يتزحزح من مكانه فهدأ روع

« المنذر » قليلا وهم أن يكلمه الا أن الرجل بدا شديد الاستغراق يهمس فى صلاته بصدق استحوذ على كيانه كله وكأن كل ما حدث لم يصله منه شيء فلا سمع المقتحم ولا حتى أحس به !! لم يطق المنذر هذا الوضع فاستدار من خلفه فى خطوات سريعة ثم وضع فجاة يده بكل قوتها ورعونتها على كتفه ولكن العابد لم يتحرك !! وانقضت لحظات ثقيلة على نفس « المنذر » احس بأنها طويلة مبهمة لا يعرف حيالها كيف يتصرف !!

واذا بالعابد يسلم بعد أن انتهى من صلاته وسمعه يقول : « الحمد لله على العافية والشكر لله فأنا أفضل من غيرى بكثير » .

وبينما « المنذر » يتفحصه عرف أنه كسيح وفوق هذا فان جانبه قد شل ، فأخرج ضحكة ساخرة لها دوى وهو يقول له :

ـ يا هذا .. على أى شيء تشكر فأنت كسيح وأنت مشلول الجانب و ..

فالتفت الرجل برأسه ناحيته وان بقى جسده على وضعه الأول وقال له :

ـ هناك من ليس له لسان يشكر به من المرض .. فأنا أملك ما ليس عند كثيرين .. اننى أملك ما أناجى به خالقى .. أشكره وأحمده وأحس عطاءه لى .

صوب « المنذر » عينيه اليه وهو يقول له باصرار آكيد :

ـ أنت كسيح ·· وأنت مشلول وغدا ستكون آخرس وآشد عجزا هذا ما ينتظرك ·

ـ اذا شل لسانى فأنا لست فى حاجة اليه فما هو الا أداة تترجم ما فى قلبى وجوانحى تحمده وتشكره يا بنى ·

ـ واذا شل قلبك ؟؟

ففكر الرجل قليلا ثم قال له بيقين :

ـ انى أعمل ليوم ممات فأشكره اذ خلقنى فى بطن أمى وسوانى وجعلنى أدخل الاسلام ·· فاذا مت فالحمد لله على كل ما أعطانى وما سيعطينى حتى بعد فراق الدنيا الى يوم البعث بعد القيامة ··

وبدأ العابد يزحف ببطء شديد الى أن وصل الى مكان وقفة « المنذر » وشد منه سيفه ووضعه بجانبه على الأرض ثم قال له :

ـ اننى حقا كسيح ولكن لدى فى الدار ماء وأستطيع أن أعينك على الوضوء يابنى ·· لقد أسعدتنى بزيارتك لى ·· لقد كنت أنتظرك ·

فرد « المنذر » متعجبا :

ـ تنتظرنى أنا ؟! كيف ؟ ولماذا ؟!

ـ لأنى كثيرا ما دعوت لك فى صلاتى ·· انهـا الدعـوة التى بظهـر الغيب وقد اسـتجاب ربى لى ·· الا توقن أنه يسمعنى ؟

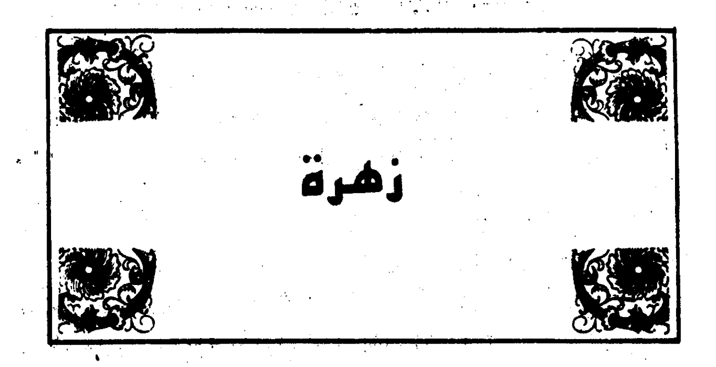
كان « المنذر سباق الريح » على وقفته فارع الطول ·· كحيل العينين ·· حاد السمع والعابد الكسيح يرفع وجهـه ليراه وحين التقت عيناهما كانت عين الكسـيح تتفجر بدموع واهنة ولكنهـا سـيالة فى أثر بعضـها « والمنذر » يحدق فيه باستغراق وقد أخـذت تقاسـيم وجهه تهدأ ·· وبدت ملامحه أكثر سكينة ·· نوع من القناعة كساه فطلت نظرة ودودة من عينيـه الكحيلتين وشد الكلمات من حلقه قائلا :

ـ ولماذا البكاء يا شيخنا ·· لماذا ·

ـ لأنى دعوت الله أن يهديك ·· انهـا الدعـوة التى بظهر الغيب ·

ـ فمال « المنذر » بجسـده عليه الى أن جنـا على ركبتيه ·· ثم اختار أن يريح رأسـه بين كفيه لثـوان ثم جلس قبالته وأخذ يردد :

« اشهد على يا أبى أننى أشهد بأن لا اله الا الله وبأن سيدنا محمد رسـول الله ·· اللهـم اجعلنى من التائبين الحامدين الشاكرين » ·



زهرة

لا تذكر كل التفاصيل التي مرت بها طفلة ·· أحداث سقطت وأحداث لم تستوعبها ولكن لا تمر عليها ليلة واحدة وقبل أن يشدها النوم الى تخومه البعيدة الا وتتذكر واقعة الغزاة حين أغاروا على قومها ··· صوت ضربات السيوف المبرقة ··· وتلك الوجوه الملثمة مازالت حية مجسدة داخلها ·· يقفزون هنا وهناك ·· يخرجون أصواتا أخافتها كثيرا ·· ضاع منها طرف جلباب أمها فبسطت كفها الصغيرة فلم تتلمسه مرة أخرى أبدا ·· الغبار ساتر كثيف حجب عنها حتى ظل أمها ···

تروى لها أختها أن هؤلاء الغزاة أتوا على قومها جميعا

والأغلب أنهم تركوها لضآلة حجمها ففي ظنهم أنها ميتة لا محالة ••• وحين تسألها وكيف نجوت أنت ؟

كانت تقول لها دائما : « لقد تظاهرت بالموت حتى رحلوا » • الا أن وباء تفشى فأتى على من بقى من القوم واختطف أختها منها •• كل هـذا ولم تكمـل عامهـا الثانى عشر !!

ومن الأشياء التى علقت فى رأسـها الصـغير أن اسمها « زهرة » • كان يمكن أن تنسى هذا الاسم من طول عدم سماعها لمخلوق آخر يناديها به •

★★★

ويتعاقب الزمن وتصبح « زهرة » شابة تعيش فى الصحراء على الأطراف شديدة البعد من مكة •• وحيدة الا من ناقة تحلب لها •• وبئر يتجدد كانت تشرب منه وما تنبته الأرض من خضر قد تتعمد زراعتها •• احبت وحدتها واعتادتها بنوع من الرضى الحقيقى فكانت اذا استلقت فى ليلها الطويل قرب البئر وليس بعيدا عن خيمتها المتداعية تنظر الى سمائها وتشـعر من فورها بجمال النجوم المبدورة فيها •• انهن صـديقات لهـا يرمقونها ويفلحون مرارا أن يبـددوا وحدتهـا •• شمسها اليومية نبع لا نهائى لا تتأخر مع مطلع كل يوم جديد •• تهديها آلاف الأشـعة تهدهدها بها وتوقظهـا

لترعى القلة من دوابها ودجاجها ·· وكثيرا ما سألت نفسها هل أشعة الشمس أكثر عددا من حبات رمال الأرض والجبال من حولها ؟ ·· تسأل الرياح سميرتها فى ليلها الطويل ·· الطويل ·· فكانت تجيبها بما يريحها فتشعر بالقناعة قناعة من امتلك الدنيا وخبر أسرارها ·

★★★

تتقلب قلقة ·· تغير مكانها ·· تضع رأسها مكان قدميها أو العكس ·· ترى هل الريح تشى لها بخبر ما ؟! واعتدلت واقفة خارج خيمتها تنظر الى سمائها فلم تعثر على النجمات صديقاتها لقد تواروا خلف أطلال من السحابات الداكنة لم تجد من يؤنس وحدتها ·· اختفاء القمر يؤكد هبوب عاصف قريب ·· مشت « زهرة » الى ناقتها على مهل رغم الظلمة · أمواج من الحنان عصفت بقلبها فتحسست الناقة مرارا وحين تلفتت تلقى نظرة على دجاجها لم تساعدها الظلمة فاختارت أن تستلقى أقرب ما تكون من ناقتها ولكن بغتة طلع الفجر عليها وهى سارحة فكانت للدنيا عيون صفراء من حولها ·· طعم الرمال فى حلقها ويابس فتحة أنفها !! لقد تبدل الحال ، فسارت الكثبان والتلال ·· وطارت الرمال على شكل حلقات ·· فسارعت « زهرة » بالنزول فى حفرة ذات عمق واتساع تحتمى بها ·· يقينها أن ما يجرى ما هو الا الايذان بيوم القيامة ·· اصوات الرياح عواء

موصول لذئب وحشى ·· تسمع العواء من فوقها ومن تحتها فكانت ترتعد وتتخبط بجدار الحفرة لا تقوى أن ترفع رأسها خارجها حتى لا تلطمها الرمال الحادة وظلت هكذا الى أن هدأ الحال وحين رفعت رأسها متمهلة تنظر كان السكون مخيما على المكان وكأن شيئا لم يكن !! وعلى مهل وبكثير من التردد كانت « زهرة » تتسلق جدار الحفرة خارجة فأحست ببرودة شملتها ووعت على الفور الى أى مدى كان باطن الأرض رحيما بها ·

خسارتها كانت فى كل شىء ، لقد أمسكت النار بخيمتها وبعض الحشائش وانقلب القدر الذى كان مملوءا ·· الرمال دفنت النباتات الصغيرة التى كانت تلتقطها ·· حتى الدجاجات تفحمت ·· لم يعد لديها شىء حى ·· الناقة لم تجدها والأغلب أن دوامات الرمال سحبتها الى مكان بعيد وهى لا طاقة لها على البحث عنها بأى حال من الأحوال · وأصبحت وجها لوجه أمام حقيقه واحدة وهو أنها بلا مأكل ولا ملبس ولا عود نبات !! وحين رفعت رأسها الى السماء تستنجد بصديقاتها النجماتلم تر واحدة منهن فقد طلعالنهار وأشعته حارقة على بدنها الضئيل ولا اراديا وجدت نفسها تسير بعيدة عن المكان الى ربوة عالية وجلست ·· كانت تتلفت بين الفينة والفينة حواليها على أن تلمح ناقتها ·· ورويدا رويدا تغلغلها احساس بسكينة تشبع قلبها ·· تهدىء من أنفاسها ·· بل ان بعضا من ابتسامة ما

سطعت على شفتيها وقبل أن تروح فى اغفاءتها وجدت نفسها تهمس « ربى افعل بى ما شئت فان عليك رزقى وأنت أرحم الراحمين » ‥ وحين فتحت عينيها لم تصدق أنها ترى كل هؤلاء البشر من حولها !! متى أتوا ؟ ومن أين أتوا ؟ لقد كانت قافلة كاملة على بعد منها حين بدأت العاصفة وقد اهتدت الى مكان « زهرة » من النار التى اشتعلت فى خيمتها ومتاعها ٠٠٠ نبض قلبها برج جسدها فقامت واقفة وبلا توان كانت تمد يد العون لكل من يسألها أو لا يسألها فتحمل الأمتعة تضعها هنا وهناك ٠٠٠ تعرض عليهم أن تجهز طعاما الى أن تعثرت فى قدرها المقلوب فالتقطته الى البئر لتملأه ‥ على قدم وساق تجرى تحاول أن تريح الجميع ‥ الى أن قر قرارهم أن يستقروا فى هذا المكان الى حين ٠٠٠ وكان « لزهرة » مطلبا أكيدا وهو أن يبنوا لها دارا ليفد اليه المرتحلون ويستريح فيه المسافرون حتى لا تتعرض لوحدتها مرة أخرى ‥

وفى احدى الليالى نادى عليها شيخهم وهو يقول بصوت مسموع :

ــ يا زهرة ٠٠٠ نحن لم نعرف منك أن لك أخا أو أبا سيعود فهل تعيشين بمفردك ؟

ــ لا أب لى ولا أخ ولا أم اننى حقا وحيدة ٠

ـ منذ متى ؟!

ـ منذ أكثر من حولين ٠

وبدأت تقص حكاية من أغاروا عـلى قومها ٠٠٠ وموت أختها و ٠٠ و ٠٠ و ٠٠ وهي تحـكى وتحـكى قاطعها قائلا :

ـ ولكنى لا أرى عليك ولا حتى مسحة من الغضب أو النقمة فكيف هذا ؟ !!

فغابت بخاطرها عنه للحظات ثم أدارت عينيها فى الجمع وعادت لتركز بصرها عليه وظل ابتسامة مرئية ملأت وجهها ٠ ثم بتأن شديد كانت تقول :

ـ ولماذا النقمـة أو الغضب من قضـاء الله وقد أعطانى كل هذا ٠٠

فتلفت الرجل حواليه وهـو يقـول لها بتعجب لم يستطع أن يكبحه :

ـ أعطاك ماذا ؟؟ !!

من فورها كانت تقول بتباه وثقة :

ـ أعطانى النجمات الصـديقات يؤنسن حيـاتى

وأعطاني الشمس الحانية ترعاني ... أعطاني حتى الريح تنبئني قبل وقوع العاصفة لأحتمي منها . وفوق هذا الا ترى كل هـذا الجمال المبثـوث حولي ... انه عطاء من الله لأستمتع به وأحمده الى أن يقضي الله أمرا كان مكتوبا ..

فانتصب الرجل واقفا واقترب منها على مهل وهو يقول :

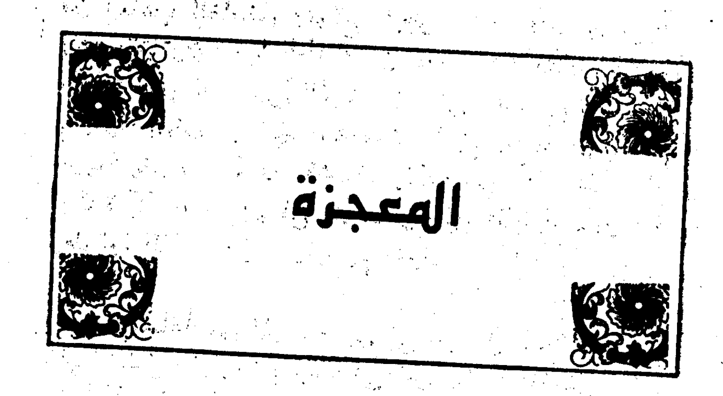
ـ والله لقد علمتني فتاة صغيرة .. أنت حـكيمة من حكماء هذا الزمان ولو نظر كل انسان الى عطايا الله هذه النظرة .. والله « يا زهرة » لن تبرح هذا المكان انما سنجعله مستقرا لنا .. ولك الدار التي تبتغينها مكانا للمرتحلين .. لك ما تشائين يا فتاة .. ويبقى لي عندك سؤال :

فدارت الهمهمات بين الجميع .. الهمس مسموع ... يتوقعون مطلب رئيسهم ومازالت « زهرة » واقفة مكانها الا أنه أكمل سؤاله بسرعة حين قال :

ـ هل تقبليني زوجا لك ؟

حدقت فيه لبرهة واستعارت لعينيها وميض نجمـة وهي تقول :

ـ وكيف لا ... وقد فعل الله كل هذا لأجل أن يهديني اليك .



المعجزة

والشمس تشيح بوجهها تدريجيا عنهم .. منذ هذا الوقت وهم يجوبون البوادى والمرتفعات كل اثنين منهم الى طريق معروف على آن يعودوا مرة أخرى لموقعهم المتفق عليه ليعلموا رفاقهم فى حالة عثورهم على القافلة التى يقصدونها .. حوالى عشرة رجال عملهم الوحيد هو السطو على القوافل العائدة والمحملة بتجارة من الشام أو المسافرة اليهم لنفس الغرض ، لكنهم يئسوا من العثور عليها .. والليل يوغل ..

ومهما كانوا قطاع طريق فلليل وحشته .. وأصوات الذئاب التى تعوى وتردد الجبال صداها لها وقع موجع فى أسماعهم .. كأنها فى عوائها تسخر

منهم .. فانزرعت الوحشة فى صدورهم وتلبسهم نوع من التأهب الغامض وتوقع المجهول .. يتلفتون بوجل وهم يقتاتون سويا الظلمة من حولهم .. تحالف القمر مع الشمس فلم يبزغ الليلة .. حتى النجوم وكانوا يعرفون بعض مجراتها استعصت عليهم واقتحمهم الظلام سريعا يغرق المكان فكشف بذلك عن بقايا آثار نار موقدة كانت دليلهم فى الوصول الى تلك الدار .. وطرقوا الباب بقوة ورئيسهم يقول :

« جماعة من المجاهدين فى سبيل الله .. أظلم علينا الليل ونريد أن نبيت فى ضيافتكم » فانفتح الباب بقوة دل عليها صوت المزلاج .. والعتمة لا تنبىء بشىء .. ومع ذلك وقبل أن يتبينهم صاحب الدار كان يهتف « أهلا وسهلا بالمجاهدين » .

وقادهم الى غرفته وفتح بابا فيها يؤدى الى غرفة أخرى أكثر اتساعا .. وقام على خدمتهم .. كل ما لديه أخرجه لهم عن رضى .. فى ركن قصى من القاعة جلست فتاة لها من العمر ما يزيد عن أربعة عشر عاما وان بدت أصغر من ذلك .. نظراتها رسائل مفضوضة بالسعادة بينهم .. بدت شديدة الاستجابة لهم .. فى عيونها انبهار وتيه بهم .. أليس المجاهدون الأبطال فى ضيافتها ؟ حتى وصلهم هذا المعنى مؤكدا .. ولكنها كانت قعيدة شلها المرض عن الحركة .. ورغم واقعها

الا أنها لم تستسلم لعجزها ! انما كانت تزحف زحفا لتقوم على أى مطلب لهم ٠٠ طاقتها متجددة ومعجونة بفرحة وتباه بهم ٠ لجوؤهم الى دارها أعطاها حلو الاحساس بالمشاركة فى هدف سام حتى استحوذت على قدر كبير من اهتمامهم فكانوا يتابعونها والتساؤل لا يمكن مقاومته « كل هذا الجمال الشفيف وقعيدة » ٠

كانت اذا التفتت عنهم قاصدة أمها لتتناول منها ما تقدمه يتمايل شعرها الأحمر فوق ظهرها كأنه موجات تلثم الأرض من حولها ٠٠ تسرع فى زحفها حتى لا تتأخر عن اكرام المجاهدين ٠٠ البسمة فى تكوين رسم شفتيها فيظهر سنها أبيض شديد اللمعان وتلك النظرة المبهورة التى تميز عينيها تظل صريحة واضحة ٠٠ والى أن اطمأنت فانسحبت عائدة الى حيث فراشها لتنام ٠

بدا ضوء الفجر متمهلا وهو يسامح الكون وفى راحة النور كانوا يتسللون من الدار يتقدمهم رئيسهم وفوجئوا بالقعيدة لم يفتها العناية بخيولهم فانتظروا حتى أنهت الركائب على ما قدمته لهم ٠٠ زغردة ضحكتها دلت على مكانها هناك على الأرض تحت أحد الخيول التى تشرب وقالتها بصوت مسموع :

« لابد لنا من أن نكرم خيولكم ونطعمها فهى لا تقل أهمية عن سيوفكم التى تعتمدون عليها فى جهادكم »

وتسربوا واحدا بعد الآخر وهي على باب البيت تودعهم بالدعاء ... واستدارت عائدة لم تكن تجرجر نفسها انما كانت تدفع دفعا من داخلها لتجد آباها فى مواجهها لحظات وشعرت بالراحة من تماوج نور الفجر يكشف كل ما حولها وكلمات بعينها خرجت من قلب ابيها وهو يقول بما يشبه الرجاء الهامس لأمها : « امسحى لابنتنا بهذا الماء المتبقى منهم نصفها الأسفل فلعلها تشفى ببركة هؤلاء المجاهدين .. فهناك ما تبقى من وضوئهم و ... » .

وقبل أن يكمل عبارته هزا الأم يقين انتظرته طويلا .. طويلا .. ترى ابنتها ترفع وجهها اليها وفى عيونها توهج كأنها تتلمس وترى حقيقة ستكون حتما .. لحظات انفلتوا فيها من واقعهم بعد أن صار لثلاثتهم واقع واحد يكمن فى أهون سبب .. « حفنة ماء » بقية من اغتسالهم ! دبيب قلوبهم يضخ رجاء آيلا الى تحقيق أكيد .

كانت الفتاة لحظتها ترتعش فى هزات صغيرة واضحة وضوح أول خطوات شفائها ... وفاض احساسهم بالعطاء الموصول .. الفرحة .. الفرحة عبق نفاذ تكاد ترى له لونا .. تلبس ثوبا جديدا كان قد أهداه اليها أحد شيوخ المكان .. وشعرها بدا أقصر كثيرا لا يطاول الا بداية جزعها وهى تقف هنا وهناك على ساقيها .. الفرحة سرقتهم .. والفتاة ترفض ..

ترفض أن تجلس لحظة ! تمشى على رجليها كأنها تتعرف على دارها لأول مرة ٠٠ نظرتها من ارتفاع وقفتها على ساقيها أنبت الاحساس داخلهـا بنـوع من الغربة عن الدار ٠٠ كأنها لم تعرفها من قبل ٠٠ تتبعت نملة تمشى على الأرض وبدهشة ٠

كانت تقول :

« لم أكن أشـعر أنها صغيرة الى هـذا الحد ٠٠٠ انها تبدو بعيدة !!

صـوت أقدام الخيول يقترب فتلفتت وهى تؤكد لأمها : « كانى أود أن أجلس قريبة من الارض لاعرف من أى مسافة يأتون ٠٠ لأنى تعودت سماع الصدى من الأرض » ٠

فضحك والدها طويلا وقبل أن يجيبها كان الرجال قد وصـلوا من جولتهم وقد سرقوا وانتهبوا ٠٠ عادوا ليقضوا ليلتهم تحت سقف يسترهم من أعين قد تكـون تترصدهم ٠٠ وواجهتهم الفتاة عند دخولهم فأتاحت لهم طول التملى فيها ٠٠ وفى صوت واحد كأنوا يتساءلون « أهذه هى الفتاة التى عرفناها بالأمس » ٠٠ وشىء ما داهمهم أدركوا معه أن قدرا ما بزغ فى هذا الحضـور الانسانى الفياض الذى يعيشونه ٠٠ انهم وجها لوجه أمام معجزة ٠٠ خيل اليهم أنهم لو حاولوا لمس الفتـاة

لما وصلوا اليها !!٠٠ انهم يعيشون معجزة ٠٠ وأخرجتهم الأم من ذهولهم الممتد وهى تعلن بلا أى تحفظ : « الان أستطيع آن آزوجهـا ولا آخشى على نفسى من المـوت وتركها وحيدة ٠ بأى عمل آشكرك ياربى ٠٠ بأى عمل أشكرك يا ربى !! ؟؟ » ٠

أما والدها فاندفـع كمن يـريد أن يعترف بسر لا يقوى على كتمانه « لا تتعجبوا أيها الرجال فبالأمس أخذت فضل مائكم وما تبقى من وضوئكم ومسحنا به على جسد ابنتى ٠٠ فشفاها الله ببركتـكم ٠٠ الستم مجاهدين فى سبيل الله ؟؟

لم تميز العصبة من الرجال أن كانـوا قد عبروا لحظات صمت فارح أم أن الصمت هو الذى عبرهم ثقيلا يطبق أنفاسهم ٠٠ ؟

ثم اجتاحتهم صحوة انفجر فيها الرجال فى البكاء المدوى ٠٠ النشيج العالى نار أمسكت بهشيمهم فطوحوا الغنائم الكثيرة التى كانت أيديهم متصلبة عليهـا ٠٠٠ وتهاوى الجميع تباعا يجلسون فوقها فى محاولة أكيدة للسيطرة والتحكم فى أنفسهم الى أن كفوا رويدا ٠٠ رويدا فانتفض رئيسهم ٠٠ شاب له طلة محسـوسة ٠٠ قوى البنية ٠٠ جسور النظرات وقال بلا لحظة تردد : « أيها الرجل ٠٠ اعلم أننا لسـنا مجـاهدين ٠٠ وانما نحن لصوص ٠٠ قطاع طريق ٠٠ لا نعرف من الصلاة شيئا

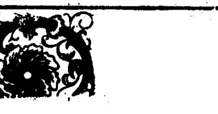
٠٠ غير أن الله قد عافى ابنتك بحسن نيتك ٠٠ و ٠٠» وتهدج صوته وانكسرت نظراته الى أسفل قدميه وهو يقولها :

« واعلم أيضا أننا تبنا الى الله توبة نصوحا فان ما جرى أمامنا ٠٠ سيبقى معاشا داخلى و ٠٠ و ٠٠» ٠

وأول ما فعله والدها بعد أن كشفوا له حقيقتهم أن جرى ملهوفا تجاه ابنته واحتواها بخوف وعيناه لا تستقران على شيء انما ينظر حواليه تارة ثم ينظر الى الرجال تارة أخرى ٠٠ يغمغم بكلمات غير مفسرة كأنه يحدث نفسه بذلك الهاجس الملح الذى استشرى بين جنبيه ؟ انه الخوف من أن تعود ابنته الى عجزها السابق حين اعترفوا بأنهم لصوص ٠٠ والفتاة تتخبط أنفاسها على لحيته ورقبته وهو يحتضنها تردد له وان لاذت لصيقة بصدره :

« لا تخف يا أبى ٠٠ ألم يقل أننى شفيت بحسن نيتك ٠٠ شفيت ببركة حسن نيتك » ٠

أما الرجال فقد تكالبوا خارجين يوزعون ما انتهبوه وكأنهم يحاولون التحلل من بعض ذنبهم ٠٠ من هول كذبهم ٠٠ وحين غابت الشمس على وعد بشروق سريع كانوا قد تقدموا الى جيش المسلمين يلتحقون به ليكونوا حقا مجاهدين فى سبيل الله ٠




الحب الحقيقى




نبتة الفرح عبق مسموع يموج فى أرجاء الدار ٠٠ يختلط بضحكات الجوارى التى تترى فى أثر بعضها ٠٠ همهمات زغاليل أو صهيل فرسات تعبير على سعادة ذلك اليوم ٠ العطر الذى يخضبن به شعورهن يحسه أى عابر ٠٠ قبل أن يصل الى أعتاب الدار ٠ البيت كله يعزف وايقاع فرح منذ أن غزا الدنيا لون الصبح الكاشف ٠٠

تطوق الدار حديقة أبعد نخلاتها تلتقى بالأفق فى ود أكيد ٠٠ الدار كأنها سقطت عمدا فى حضن هذه الحديقة الرحبة ٠٠ الرحبة ٠٠ الرجال يجمعون البلحات

والرمان ونوعا ثالثا من الفاكهة له صفرة لون شهيه رغم صغر حجمه الذى لا يزيد عن حجم التمرات ·· ومع صوت الطبول المسموعة من داخل الدار وصوت الناى الذى يداعبه رجل متوحد تحت تكعيبة عنب الا أن صوت الهمس لم يتوقف عن الجارية « ريحانة » ·· يتتبعونها فى غدوها ورواحها ·· ولم تكن مشغولة فى تخضيب شعرها الذى يشكل هالة كثيرة الحلقات حول وجهها وممتدة أيضا الى ما بعد كتفيها ·· ولم تكن حتى مشغولة فى أعداد ثوبها انما كانت تروح وتجىء وعلى عجلة دوما من أمرها لتنهى ما أمكنها من أعمال تتعلق بوليمة الليلة ·

ومشى نصف النهار · وتوسطت الشمس تاجا يطاول السماء ·· وراحت الجوارى يخلدن الى قليل من الراحه تتمطى كل واحدة فى فراشها تحلم بليلة اليوم ·· الا أن «ريحانة» لم تتوقف برهة ·· مصلوبة العود تدور هنا وهناك ·· وتذكرت أن نافورة البهو خالية من الزهور ·· فجرت فى خفة تجمع الورود وأعواد « التمر حنة » لتضعها فيها ·· تعرف أن صاحب الدار يفخر بها أمام ضيوفه ··

حبات العرق مبدورة على جسدها الفاره الأبنوسى كأنها استعارت نجمات الليل لتصطف بانتظام خيوطا

على ذراعيها ورقبتها •• فبدت فى أوج زينتها رغم الجهد الكبير •• قطرات العرق ترصع وجهها الى رقبتها •• فلم تحاول أن تجففها :

لم تكن أحلى الجوارى فأين هى من جاريات الشام؟ زرقاوات العيون الا أن الهمس كان يدور حولها الكل يردد « بأن سيدهم صاحب الدار قد شغف بهذه السوداء حبا » وهى تسمع أحيانا وتتسمع عن قصد أحيانا اخرى فلا يزيدها هذا الا انغماسا فى العمل الكثير الذى تحرص على أن تقوم به !!

وحل الليل سريعا والهلال بسمة حانية اللون من السماء •• الدار من الداخل مكتملة الاستعداد لتستقبل ضيوف الليلة فى توافدهم •• وبدأ الغناء يصدح يتردد صداه ويصل الى الحديقة رائقا كأنه تصفى وهو يمرق هنا وهناك •• وفى لحظة أمر صاحب الدار باحضار الجوارى قرب مجلسه فطارت رغبته بينهن تسابقن متدفقات تتبعهن « ريحانة » بهدوء •• وعند مجلسه كان صاحب الدار يعطى لكل واحدة قدحا فارغا من الياقوت الأحمر الحر وأمرهن بالقائه !! ••

لحظة صمت احتلت الدار بمن فيها وتوقفت الموسيقى برهة ثم برهة أخرى ثم ثالثة فقد امتنعت كل الجوارى عن أن يكسرن الأقداح لأنها من الياقوت الخالص ••• وفجأة دوى صوت القدح من يد « ريحانة » وهى تلقيه

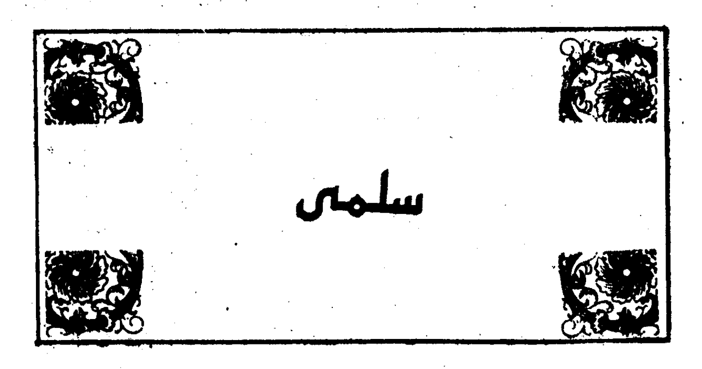
بقوة ‥ فتكسر ‥ وتكسر فتاتا على الارضية لم يمهل صاحب الدار الضيوف ‥ الدهشة على كل الوجوه ‥ كل توقف فى مكانه عن الكلام والشراب والضحكات فقالها عالية « انظروا الى هذه الجارية ‥ ليست أجملهن الا ان فعلها مليح ‥ واذا سألتموها ستجدون فى جوابها حكمة ما و ‥ و ‥ » .

ثم قام من بين رفاقة وتوسط البهو وسألهم بصوت مسموع « ترى لماذا كسرت جاريتى قدح الياقوت ؟ » فلم يجب سؤاله أحد ! فالضيوف فى حيرة من أمر هذه الجارية ودافعها لكسر القدح !؟ ‥ مشى خطوات قليلة واقترب منها الى أن وضع كفه على كتفها مشجعا : «قولى يا ريحانة لماذا أطعت أمرى ؟ » .

فدارت بعيونها فى المكان ومن فتحة واسعة فى سقف البهو لمحت الهلال فصوبت عيونها لبرهة عليه كأنها تتساءل وأين نصفك الآخر ثم أرخت عيونها وهى تهمس :

« سؤالك صعب يا سيدى ولكنى سأجيبك ‥ سأجيبك لقد أمرتنى بكسره ‥ وأنا أعلم أن فى هذا الفعل نقصا فى مالك ففضلت أن أنقص من مالك أولى من أن أنقص من طاعة أمرك فان الله سبحانه وتعالى أمر بطاعته وطاعة الرسول وأولى الأمر منا وأنت ولى أمرى

فاطمتك طاعة منى لله » ·· وعادت تنظر الى الهـلال ثم خطفت نظرتها بسرعة الى قدميها فانحبست الأنفاس ولكن صاحب الدار أشار لها أن تكمل فقالت بعد لحظة تردد ثم استسـلام فبـدت فى وقفتها رقيقة أكثر مما تحتمل واحساسها بالوحدة عظيم الا أنها قالت على مهل: « كما أنى يا سـيدى رأيت فى كسر القـدح وصفى بالمجنونة ·· وفى ابقائه وصفى بالعاصية والأولى أحب من الثانية فى الدنيـا والآخـرة ·· اللهم اجعلنى بك مجنونة ولا تجعلنى لك عاصية » ·



سلمى

الدار تتوسط حضن الجبل فبدت كأنها جزء طبيعي منه أو بعض امتداد له ٠٠ كل العيون ترمق هذه الدار لأن الجبل من حولها له لون نادر يميل الى الزرقة القاتمة فاذا سطعت الشمس توهج اللون طوال النهار واذا ظهر القمر باطلالته الباسمة الطويلة منح الجبل لونا فضيا يشد اليه النظرات الساهمة الطويلة أكثر وأكثر ٠ وسلمى منهمكة في تصفية التمر المبلل فضيوف أبيها يتوافدون الواحد بعد الآخر منذ غروب الشمس وتسمع جلبتهم القريبة منها فلهم مجلس كل يوم مع أبيها وكانوا يثنون على ما تقدمه لهم من التمر ٠٠ تعرف أن كل واحد فيهم يريدها لابنه والشباب منهم يطلبونها لأنفسهم الا أن

والدها كان دائما ما يردهم بتلطف شديد وبعد أن يرحلوا كان يقترب منها وهو يهمس لها « دعيني أختار لك ٠٠ قليل من الصبر يا ابنتي » فتحمر وجنتاها وتشيح بعينيها الواسعتين عن وجه أبيها ولا تردد الا عبارة واحدة « افعل ما شئت يا أبي ٠٠ افعل ما شئت الا في هذا اليوم » ٠

وبينما كانت مشغولة فيما تعده اذ ناداها والدها من بين صديقاتها الموجودات معها٠٠ فمشت اليه وقبل أن يكلمها تلفت يمينا ويسارا فاذا الدار مملوءه بالرجال من أصدقائه فأشار لها أن تتبعه وفي خطوات سريعة كانت خلفه خارج الدار الى أن توقف واضعا ذراعه على كتفها وهو يقول لها هامسا :

« أريدك الليلة أن تلاحظي ضيفنا « حاتم » في كل كبيرة وصغيرة و ٠٠ و ٠٠ » ٠

لم تكن رأته من قبل أو سمعت عنه فأفهمها أبوها بعض أوصافه ودخلت الى الدار مسرعة واستراحت حين شعرت أن أحدا لم يلحظ غيبتها القصيرة ٠٠ وعادت لتنشغل فيما تجهزه يساعدنها صديقاتها ودخلت لضيوف والدها تدور عليهم بالشراب الى أن وصلت الى «حاتم» وعرفته ولما عادت الى صديقاتها تعمدت أن تجلس في زاوية اختارتها تستطيع منها أن ترقبه وكان الحديث بين أبيها وضيوفه شاملا وواسعا ٠٠ عن البيع والشراء في

نهار السوق ·· عن المنازعات والخصومات الدائرة بين بعض القبائل ثم تحول الحديث بينهم الى الشعر فألقى بعضهم أجزاء من أشهر القصائد فى ذلك الوقت وتطارح اثنان منهما شعرا فكان والدها سعيدا يطرب لما يسمع وبغتة سمعوا آذان العشاء فانصرف البعض وبقى آخرون ضمنهم « حاتم » وطلب الدها بصـوت مسـموع ماء للوضوء فتسابقت وصديقاتهـا فى احضـار ما طلبـه وعادت الى مجلسها فى نفس مكانها مرة آخـرى ثم قام بعض الرجال للوضوء الا آن « حاتم » تأخر وظل واقفا أمام الماء فترة فسأله والدها :

ــ ما يؤخرك عن الوضوء يا حاتم ؟

فرد عليهم بصوت هامس :

ــ انى أبدأ بوضوء الباطن ·

فظهرت الدهشة على وجه أبيها وهو يسأله :

ــ وضوء الباطن ! ماذا تعنى ؟ وكيف ذلك ؟

فظل « حاتم » على وقفته وقد لاحظت سـلمى أنه ممشوق القوام له شعرمرسل يكاد يلامس كتفيه الا أنها انتبهت الى باقى كلامه :

ــ اذا قمت للوضوء ·· فانى اتوضأ وضوءا ظاهرا ووضوءا باطنا ·· بادئا بالباطن وهو غسل الداخـل بالتوبة والندم ·· وترك حب الدنيا ·

ولم يفكر والد سلمى كثيرا فيما قاله انما بادره بالسؤال :

ـ اذا كان هذا هو وضوؤك فكيف بصلاتك ؟

فرد من فوره :

ـ أقف للصلاة حتى أرى الكعبة ببصيرتي ·· الله ينظر الى لأني في حضرته والجنة عن يميني ·· والنار عن شمالي ·· وملك الموت خلف ظهري ·· كأني ·· كأني ··

ـ كأنك ماذا أكمل ؟

ـ كأني واضع قدمي على الصراط وأظن أن هذه الصلاة آخر صلاة أصليها ثم أنوي وأكبر ·· وأقرأ بالتفكير ·· وأركع بالتواضع وأسجد لله متضرعا ·· الى أن أسلم بالاخلاص ·

فاقترب منه أبو سلمى وهو يستفسره :

ـ ومنذ متى وأنت هكذا ؟

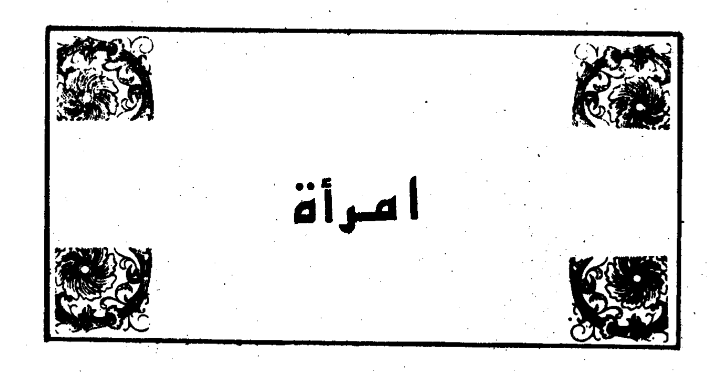
فقال حاتم بصوت خفيض :

ـ هذا وضوئي · وهذه صلاتي منذ علمت أنني المخلوق ·· وان لي خالق وانني ان كنت حيا اليوم · فالى موت محقق ·· أى الى حساب ثم عقاب أو ثواب

واذا أردت أن تعرف من كم من السنين فهذا منذ عشر سنوات ٠

كانت سلمى قد سمعت كل ما دار بينهما وصديقاتها مشغولات عنها بالكلام والطعام ٠٠ وحين ناداها والدها جاءت اليه على مهل وعيناها نهران من الدموع وقبل أن يسالها كانت تقول لوالدها :

ـ انها دموع الفرح يا ولدى ٠ فنعم ما اخترت لى٠



امرأة

ليال ثلاث وضيق يتخبط داخلها ٠٠ يتغلغلها ٠٠ يسير دماءها دفقات متكاسلة الى قلبها فيختل نبضها ٠٠ وينبت الهـول في أعماق رحمها حتى حـد الألم الذى لا حد بعده هاجس يطاردها ولا تتبينه ٠٠ لا يمكن أن تكمل نومها وكل هذا التفجر داخلها ٠٠ حمـل ثقيـل يسوى عظامها يلجمها فتسمع لأعماقهـا أنينـا قريبـا موصـولا !! تنتصب واقفـة ومازالت بعض أطرافهـا نائمة ٠٠ تمشى الى مكان « الزير » الموضوع دوما بين فتحة الباب والنافذة فتتعاقب موجات الهـواء عليـه ويبرد ٠٠ تعثرت فى طريقها وكادت تسـقط الا أنهـا انتبهت وقبضت بأصابعها عـلى الاناء لتشرب ٠٠ بقى

منها بعض الماء فسكبته على رأسـها حتى ابتلت « رباه لعل البلل يطرد الهواجس من رأسى » وارتدت مرة أخرى الى فراشها تنوى النوم ٠٠ الظلام آكيد ٠٠ فتمددت على ظهرها تضع راحتها على جفنيها تستجلب نوما مستحيلا٠

كأن للفجر سهاما داهمت عينيها رغم وضـع راحة يدها عليهما فانتفضت واقفة بطولها الفاره وخصلات شعرها المبتل تلتصق برقبتها وكتفيها ٠٠ بخطوة واحدة كانت تشد باب الدار وامتص جسـدها السـاخن ندى الفجر الرطب ٠٠ قلبت عينيهـا بين السـماء والأرض كأن ما ينتظرها تحاول أن تتبينه !! تناولت عصـاها تهش بها على غنمها ٠٠ كان زوجهـا مازال نائمـا مع طفليها والرضيع لم يستيقظ بعد ٠٠ فمشت ثم وجدت نفسها تسرع حتى جـرت ٠٠ كانت كمن قام بثيابهـا حريق فكيف تتوقف ظلت تجرى حتى غابت هناك بعـد التل الى أن سطعت الشمس وفكرت أن تعـود ولكنهـا توقفت أكثر من مرة ٠٠ خطواتها ضنينة لا تتقدم بهـا انما تشدها راجعة ٠٠ شيء ما يأكل فى صدرها ٠٠ خبر تنتظره يتخبط داخلها وله مذاق الخوف حتى الأعماق٠٠ دقات قلبها تقفز فوق بعضها ٠٠ شيء ما من داخلها يشك ثديها ٠٠ وضعت كف يدها على قلبها كأنهـا تزيحـة داخلهـا ٠٠ تمنعه أن يسـقط عند قدميهـا ٠٠ حتى أغنامها تتسكع هنا وهناك لا تطاوعها على العودة رغـم قسوة الشمس ٠٠ كان لتجسد الرضـيع فى خاطـرها

الأثر الأكيد فى قرارها بالعودة متخطية هلع احساسها وحرون الأغنام ٠٠ تحاملت تهش عـلى أغنامهـا حتى جمعتهم ٠٠ تنظر الى دروعها وتقرر لنفسها أن تسقى رضيعها لبن احداهن فمن داخلها تشعر بالنضوب الكامل ٠٠ واليقين مازال يطاردها بأن هذا اليوم هو آخر أيام دنياها ٠٠ لا يمكن الا أن يصدقها قلبها « ان عذابا ما ينتظرنى » ومع خطواتها المترددة التى تقترب بهـا من الدار كان هناك نوع من الاستسلام يغزوها فبدت كمن تساق الى قدر محتوم فهتفت بصوت ضاج « لا مفر لى من مواجهة قدرى » ٠

وتمر السنون ويعتاد سكان المنطقة جلوس امرأة تبدو كنصب أبدى للرضى عن رضى حقيقى ٠٠ تبدو فى جلستها فارهة الطول كنصب ينبىء بطـول صبرها حتى يكفى نساء القوم أجمعين ٠٠ هناك بجوار المسجد الوحيد الموجود بين منطقة الكعبة على أول الطريق الى المدينة ٠٠ يتحلق النـاس حولهـا يسـتمعون اليهـا ويشاورونها ٠٠ كان اهل مكة يلقبونها بالشجاعة ٠٠ وهى بدورها اعتادت أن تقص حكايتهـا عـلى كل من يسألها فتقول لهم : « فى صبح هـذا اليوم وأنا عائدة بغنمى وأعرف أن زوجى ينوى أن يذبح شاة ليضـحى بها لشأن من شئون نفسه ـ والحق يقال كان زوجى فى ذلك الوقت شابا بهى الطلة شديد التقوى ٠٠ أمسـك بالشاة وذبحها وقد انشغلت أجهز بعض أمورى ٠٠ وقد

أحببت هذا الانشغال لأنه صرفني عن قلقي الذى يملأ روحى ·· الى ان وقفت بجانبه يناولنى ما يقطعه وأنا أزعه بين وعائين·· وفجاة كأن الصدر انشق منى بسكين وأنا أسمع صرخة أحد أبنائى فسقط من يدى الـوعاء واستدلت داخله لا أدرى كيف !؟ الأمر لم يستغرق طرفة عين وكنت وجهـا لـوجه مع قدرى وبطريقـة قاطعـة ونهـائية ·· نفسى تنزف نفسى أنا أعى أن ولـدى الأكبر قال لأخيه الأصغر : « ألا أريك ما صـنع أبى بالشاة » ؟ وقام الى سـكين وذبح أخاه ·· ولمـا خشى العاقبة خرج هاربا ·· مرق كالشهب من أمام عينى ·· فاستدرت أنادى عليه فلم أجد صوتى ·· خاننى صوتى حاولت أن أجـرى خلفـه فكانت قدماى تغوصـان فى الرمال السافة بضراوة ·· وسطعت جسورة أمام عينى أحلامى وهواجسى انها نفس الرمال التى تسحبنى الى رقبتى ولا أستطيع منها خلاصا ··

ولم يستجب ابنى وابتلعته الصـحراء ولما رأيتـه يقترب من الأفق ليتوارى خلفه عرفت أننى فقدته هـو الآخـر ··

ولم يكن أمامى الا العودة ويا لهول طريق عودتى ··ويا لانكسار بالى ·· كان طويلا ·· طويلا وحتى بلا أفق هل أمشى أم أننى فى كل خطـوة يهـال عـلى

التراب ؟ ·· كل شي انقلب أمام عيني الأرض برمالها الحارقة من فوقي ومن تحتي ·· ولم أعرف لي سماء ·

وحين دخلت عتبـة دارى وأنا ألهث وأرغي كأنى ناقة ولت هاربة لحظة ذبحها لم أعايش هـذا الاحساس طويلا فقد اجتاحنى كالبرق واقعا أشد بأنى ذبحت فعلا وأن القلب وقع منى خارج صدرى وعلى مقربة منى ومع ذلك فانه ينبض وأنى مازلت أعيش حـين عـرفت أن الرضـيع انقلب فوقه ماء المـوقد السـاخن الذى كنت أجهزه لزوجي فمات في لحظتها و ··

وحين تصل الى هذا الحد عن حكايتها يصرخ الجميع وهم يسألونها : « وكيف وجدت نفسك صـابرة ··· كيف عرف الصبر الى قلبك طريقا » فكانت تقول دائما وظل ابتسامة على وجهها : « لأن زوجي قال لى فى رضى وتسليم اللهم انى أعلم أنك تدخر رحمتك لى ليوم أشد من هذا » ·




الدرس الأخير




أصر طارق أن يقوم من فراشه ، وبعد أن اعتدل واقفا بدا طويلا ممشوقا الا أن الاجهاد مسح وجهه بشحوب ملحوظ فأكسبه ذلك شفافية في الملامح ومع أول خطوة له كاد أن يهوى ساقطا لولا أن اقترب منه جده فاستند عليه بقوة :

ـ يابنى لماذا تقسو على نفسك وأنت فى هذه الحال !

ـ جدى أريد أن ألحق برفاقى كما تواعدنا و ..

ـ ولكنك يابنى محموم .. سخونتك شديدة

وظاهرة من لون عينيك ·· ألا ترى أنك لم تستطع الوقوف !!

ـ ولكنهم ينتظرونني وقد وعدتهم و ··

فقاطعه جده وهو يربت على كتفه :

ـ حين يفطنون الى غيبتك لابد أنهم سيأتون وسيعرفون بانك مريض ··

فاستسلم طارق وتمدد فى فراشه وبعد برهة كان يقول بصوت خفيض «انى أشعر ببرودة غريبة» فما كان من جده الا أن أحضر اناء مملوءا بالخل وأخذ يدلك به أطرافه ·· ثم اتجه ناحية رأسه وهو يغمس قطعة القماش ويضعها عليها الى أن ابتلت وضحك معه وهو يقول « ما هذا الشعر الغزير ·· ألهذا تعجب بك فتيات الوادى جميعهن ها ·· ها » ··

ابتسم طارق قبل أن يروح فى اغفاءة قصيرة فقد استراح حين شعر ببداية زوال الحمى · تركه جده بعد أن أحكم الغطاء حوله وأخذ يجهز له مشروبا حتى اذا استيقظ كان أول ما قدمه له وهو يؤكد « اشرب دون مجادلة فأنا أريد أن أحكى لك أمرا غريبا حدث لى أيام أن كان لى عمرك » تناول طارق بلهفة كوب الحليب

الرائب ونظرة مبرقة بدت من عينيه وهو يقول « على هذا الشرط يا جدى أشرب كل ما تريد » .

ثم أمسك بكف جده يضعها على خده تارة وعلى رقبته تارة أخرى ، ليؤكد له أن سخونته تكاد أن تكون قد انتهت ... لم يكن طارق صغيرا الى الدرجة التى يفرح فيها بقصة يرويها له جده ولكنه كان فى السن التى يعى فيها أنه بحكاياته هذه والتى ينتهز كل مناسبة ليرويها له انما يقصد من ورائها أن يعلمه شيئا أو يلفت نظره الى فكرة ما . فقد تربى وهو يسمعه دائم القول بأنه يعده اعدادا خاصا لأنه يتوسم فيه أداء دور هام بالنسبة لمجتمعه فكان الفتى فى شوق متجدد ليسمع .. ويسمع منه .

ترك الجد الفتى وقام ليصلى العصر وقد تعمد أن يطيل فبدا مستغرقا فيما يدعو به . بعد ذلك أخذ يقرأ بهدوء والفتى فى شوق ينتظره وأخيرا اقترب منه وهو يقول بفرح : « حمدا لله الآن ذهب الاحمرار الذى فى عينيك .. لقد كنت أرقبك وأنا أقرأ » ضحك طارق وهو يردد « انه الحليب الرائب امتص السخونة من بدنى فماذا تريد منى أيضا يا جدى انى مشتاق أن أعرف ما تريد أن تقصه على » .

احتضن الجد وجه طارق بين راحتيه ومن عينيه كانت تطل نظرة حوت حنان الدنيا كلها ثم جلس

قبالته ·· كان مهيبا فى جلسته ولم يكن طاعنا فى السن كان فى بداية الخمسينات يحظى بتقدير الجميع ·· يعمل بالقضاء مشهورا بشدة عدله الى درجة تصل الى معنى القسوة فكان الناس حتى خارج ساحة التقاضى يحكمونه فيما يعن لهم من أمور ··عايش الامبراطورية الاسلامية حين فتحت مصر والشام وبلاد فارس فكان يوصل الليل بالنهار فى الاطلاع ويحرص ان يعطى حفيده أولا بأول كل ما يصل اليه من علم ·· وزفرة ضيق انفلتت من الفتى قبل ان يفتح فمه بكلمة واحدة كان جده يقول له :

ـ لا تقلق يابنى ·· فأنا عند وعدى لك سأحكى لك القصة التى حدثت لى فانه والله لا يغمض لى جفن الا وأتذكر هذه الحادثة فمازال عقلى يحار فيها للآن ·· و ··

فقاطعه طارق وهو يقول :

ـ وهل يمكن أن يحار عقلك فى أمر من الأمور يا جدى ؟

ـ ما دمت حيا فهناك دوما ما يدفعنى للتفكير وللحيرة فيه ·

ـ كيف تحتار ولديك دائما الاجابة لكل تساؤل !!

أطرق الشيخ لبرهة ثم رفع رأسه وهو يقول :

ـ أحار فى حكمة الله قبل أن أتبينها و ··

فقاطعه مرة أخرى :

ـ واذا احترت ولم تتبين حكمته فماذا تفعل أو تتصرف ؟؟

فرد عليه من فوره .

ـ أرضى ٠٠ بمعنى الرضا من الأعماق والاستسلام لمشيئته تماما ٠٠ عندما أصل الى هذه الدرجة أتبين الحكمة وأعثر على الحل فدائما هناك الحكمة العظيمة التى قد لا نعلمها فى حينها يابنى ٠

ـ ولكنك قلت بأنك الى اليوم تحار فيما ستروية لى ٠

ـ ليست الحيرة بمعناها المعروف وهو غياب الحل ٠٠ ولكنها حيرة بمعنى التعجب فقط ٠٠ ودعنى أرويها لك لتتعجب من مشيئة الله العظيمه فى مسامحة بنى البشر لأنه الرحيم والذى يلقى لنا بمفاتيح لا نهاية لها لندخل الى رحمته ٠

ثم أطرق طويلا قبل أن يقول « أنت تعلم يابنى أننى نشأت هنا فى حضن الكعبة ٠٠ وكان لهـا امام أحببته كثيرا وكنت لا أفارقه الا لساعات النوم وفى احدى جلساتى معه وهو ينسخ أحد كتبه لاحظت عليه اجهادا شديدا فقمت أحاول أن أتمم ما يعمله فأخذ يردد بصوت خفيض « ومن غيرك سيتمم أعمالى » ظللت

أنسخ بهمة وعزم الى أن غشانا الليل فقمت لأشعل الفتيل وقبل أن أعود للكتاب مرة آخرى جهزت للامام شيا ياكله الا أنه امتنع ان يتناول شيئا اللهم الا القليل من الحليب والتمر ٠٠ فى هذه الليلة تواعدنا على شىء غريب فعلا ٠٠ تواعدنا على أنه اذا مات فسيزورنى فى منامى ليتابع لى الدرس والتعليم ولم أكن أعلم أن هذه كانت آخر مرة لى فعلا أراه فيها حيا فقد تركنى أتمم النسخ وذهب الى حجرته ليئام ٠٠ وهناك كانت مشيئة الله التى لا ترد ٠٠ آه يابنى كم عصف بى الألم وشعرت بوحشة موجعة لا حد لها ولم يمض على فراقه لى أكثر من نهار ٠٠ وأطبق الليل على أتنفس احساسا مريرا بوحدة لا أعرف فيها الا المزيد من الشوق له وقرب الفجر رحت فى اغفاءة فرأيت الامام فى منامى ٠٠ جاءنى متمهلا كعادته فاقتربت منه بلهفة وسألته :

ـ ماذا وجدت فى الموت يا سيدى الامام ؟؟

فابتسم وهو يقول :

ـ لقد غفر لى ربى ٠٠ ورأيت مكانى فى الجنة

فسألته كعادتى مستفسرا :

ـ ترى بأى عمل غفر الله لك ٠٠ أظنه بكثرة الصلاة ٠٠ أم بطول الصوم ٠٠ أو أنه باجتهادك فى تعليم الناس ؟؟

الا أنه ابتسم تلك الابتسامة الـودودة التى كنت أحبها منه واهتزت لحيته فمسح عليها وهم أن يستدير وهو يقول لى :

ـ غفر الله لى لأنى اذا كنت اذا رأيت الميت قلت سبحان الحى الذى لا يموت ٠

ومر وقت قصـير من التفكير بينهما قبل أن يهمس طارق :

ـ ترى بأى ايمان ٠٠ وأى يقين كان يقولها الشيخ الامام حتى يدخل بها الجنة ؟!

فابتسم الشيخ ٠ وهو يهمس بفرح :

ـ أراك فهمت الحكمة يابنى ٠٠ أراك فهمت ٠

الفهرس

الأهداء ٧
شكر ٩
الحق ١١
اليتيم ١٧
السيدة.. الجارية!! ٢٣
العائد ٢٩
الزوج الأول ٣٧
الكسيح والكحيل ٤١
زهرة ٤٥
المعجزة ٥٣
الحب الحقيقى ٦١
سلمى ٦٧
امرأة ٧٣
الدرس الأخير ٧٩

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٤٧٦٦ / ٢٠٠٣

I. S. B. N 977 - 01 - 8822 - 0